ثقافة الأطباء عند العرب

لم أعثر في الكتب العربية الطبية على بحث خاص يرينا كيف كان أطباء العرب في عصورهم العلمية وحضارتهم الزاهية يهيئون أنفسهم لدراسة علم الطب وماذا يتعلمون من كتبه الموجودة في زمنهم .

واننا وان كنا نعرف الكثير عن البيمارستانات والمشافي وأقسامها وفروعها وادارتها وأطبائها وما يلحق بها من معاهد للتدريس والتعليم ، ولكننا لا نعرف بالضبط ما هي العلوم التي كانوا يدرسونها وكيف كانت تجري امتحاناتهم ؟ .

ولأهمية الموضوع وجدت ضرورة للبحث في مختلف المراجع القديمة والتراجم الطبية [1] علني أهتدي اليه ، والى معرفة العوامل التي أدت الى ازدهار العلوم الطبية والعلوم الطبيعية وغيرها وما كان لأطباء العرب من نصيب في هذا المضمار .

والذي اتضح لي بعد كل جهد أن أطباء العرب في القرون الخمسة الأولى من حضارتهم كانوا (انسكلوبيديين) أي (موسوعيين) بمعنى أنهم كانوا يتعلمون

---

(١) كعيون الأنباء في طبقات الأطباء لموفق الدين أبو العباس بن أبي أصيبعة المتوفى سنة ٦٨٨ هـ . ٢ – وتاريخ الحكماء لظهير الدين البيهقي المتوفى عام ٥٦٥ هـ . ٣ – وإخبار العلماء بأخبار الحكماء لجلي الدين القفطي المتوفى عام ٦٤٦ هـ . ٤ – وكتاب البيمارستانات في الاسلام للدكتور أحمد عيسى . ٥ – والطب عند العرب للأستاذ خير الله . ٦ – وكتاب الأعلام لخير الدين الزركلي . ٧ – والحضارة الإسلامية لكردعلي . ٨ – وتاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان . ٩ – ودائرة المعارف البريطانية . ١٠ – وكتاب وفيات الأعيان لابن خلكان . ١١ – وقانون حمورابي للمؤلف .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

علوماً عديدة يضيفونها الى ثقافتهم الطبية العامة والخاصة التي بلغوا فيها شأواً عظيما ما زالت آثاره الخالدة مسطّرة في كتبهم ومعاهدهم ومؤسساتهم .

واذا تساءلنا لماذا كانوا يتعلمون تلك العلوم التي كان أولها وأهمها اللغة العربية والصرف والنحو والإعراب والبيان والبديع والبلاغة ، ثم العلوم الأدبية كالشعر والأدب والروايات ، ثم العلوم الاجتماعية كالتاريخ والتراجم والسيرة والقانون والقضاء ، ثم العلوم السياسية كنظام الحكم وأصول الإدارة والعلاقات الدولية ، ثم العلوم الفلسفية كالمنطق وعلم النفس وما وراء الطبيعة وعلم الأخلاق واللاهوت . ثم العلوم الرياضية كالحساب والجبر والهندسة والفلك والمثلثات ، ثم العلوم الطبيعية كالكيمياء والنباتات والحيوانات وعلم المعادن وعلم الأقاليم والمياه ، ثم يتعلمون العلوم الطبية كالتشريح ، والطب الداخلي وأمراض الجلد ، وعلم الجراحة وعلم الولادة وأمراض النساء ، وعلم الفيسيولوجيا ، والصحة ، وأمراض العيون ، ومفردات الطب ، والأقرباذين ، والصيدلة وغيرها[1] . أقول اذا تساءلنا عن السبب لم نجد جواباً إلاّ أن عصرهم كان يحتم على أكثرهم دراسة هذه العلوم مع علوم الطب تبعاً لأصول التحصيل الجاري في زمنهم ، واستجابة لحاجات الناس الذين يعتبرون الطبيب ملماً وعارفاً بكل شيء . أما كيف وصلوا الى غاياتهم فكتب التاريخ والتراجم تدلنا على أن أطباء العرب اتبعوا أساليب اليونان في ثقافتهم التي لم تقتصر على الطب والطبابة بل تناولت ما ذكرناه من العلوم

(١) ومع تعاطي المهنة الطبية كان بينهم من اشتغل في السياسة والوزارة ، ومنهم من كان نديماً خاصاً للملوك والأمراء والوزراء ، ومنهم من كان معلماً منقطعاً للعلم والبحث والتجربة والاستقراء ، ومنهم من تعاطى الطب ثم تركه واشتغل في الفقه والتدريس ، ومنهم من تصوّف وانقطع عن الدنيا ، ومنهم من كان موسيقاراً أو شاعراً ، ومنهم من اشتغل في الفلك والرصد والرياضيات .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المتعددة والفنون المشهورة كما هو المعروف عن أبيقراط [١] ، وسقراط [٢] ، وأفلاطون [٣] ، وأريسطو [٤] ، وجالينوس [٥] أئمة العصور اليونانية والرومانية وكما هو معروف عن أئمة أطبائنا كالفارابي ، وابن رشد ، وابن سينا ، والرازي ، والزهري ، والزهراوي ، وابن البيطار ، وابن حزم ، وابن أبي أصيبعة ، وابن خلدون وغيرهم .

وسببه كما قلنا تأثير المجتمع وحاجات الزمن وطبيعة الثقافة التي فرضت على الطبيب أن يكون حكيماً عليماً ملماً بما وصلت اليه معارف الزمن ، ماهراً في صنعته ، ذكياً في تدقيقاته وتحرياته ، فيلسوفاً في أفكاره ، وتصرفاته ، إنسانياً في معاملاته ، مدنياً في أخلاقه ، وعليه أن يمثل الفضيلة في سيرته ، وأن يتصف بالخصائل التي تجعله قدوة في النظافة وأدب المحادثة ، وجدية العناية ، وكتم السر ، وخدمة المحتاج .

وعليه أن يكون بعيداً عن الأذى والضرر وسوء النية ، لا يقصر في معونة من يحتاجون الى علمه ، ورأيه وتدبيره ، كفؤاً في صنعته ، شريفاً في معاملاته .

وكلها صفات حميدة لا يستغرب من المجتمع الإنساني إن تطلبها من أطبائه

---

(١) أبيقراط Hippocrates يعتبر أبا الطب وواضع أساساته ، ولد عام ٤٥٠ ق. م

(٢) سقراط Socrates أشهر حكماء اليونان ولد عام ٤١٨ ق. م وتوفي عام ٣٩٩ ، وعلّم في أثينا وكان يلقي دروسه في الأزقة والشوارع وبين الجماعات ثم تألب عليه السوفسطائيون وجروه أمام الحكم فحكم عليه بشرب السم وهو في السجن فشربه ومات .

(٣) أفلاطون Ploton فيلسوف وطبيب يوناني ولد عام ٤٣٠ وتوفي عام ٣٤٧ قبل الميلاد .

(٤) أريسطو Aresto فيلسوف وطبيب من أكبر فلاسفة اليونان ولد في عام ٣٨٤ وتوفي عام ٣٢٢ ق. م

(٥) جالينوس Galinus من اعظم أطباء اليونان ولد عام ١٣١ بعد الميلاد وتوفي عام ٢٠١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فيما مضى والآن ، لأن علم الطب كان في جميع العصور التي مرّت على تطوّر البشرية ورقي الإنسان معدوداً من أرقى العلوم وأهمها ، ومعاطاة الطب كانت ولا تزال من أشرف المهن ، والطبيب العالم الحاذق الفاضل كان ولا يزال صاحب الاعتبار والتقدير في مجتمعه وبين أفراده ، لأن بيده تخفيف الألم وإزالته وشفاء السقام أو تعديله ، وجبر الكسر ، وبتر الفاسد ، ومداواة العلّة ، وحفظ الصحة ، ووقاية الجسم ، وتشخيص المرض ، ومحاربة الوباء ، ومعالجة الجروح ، واعادة النفوس العليلة الى حالها الطبيعي .

واذا كانت تلك الخصال والمزايا والعلوم من ضرورات العصر اليوناني ومن ضرورات العصور العربية ، وكانت أيضاً من ضرورات العصر المصري والبابلي والآشوري والإيراني فلماذا لا تكون من ضرورات عصرنا وان تطوّرت وتنوعت ثقافة أطبائنا وأصبحت ذات فروع وذات اختصاص ، ولها معاهد ومؤسسات ومختبرات ، ولها أدوات ومعدات ؟ أليست الفضائل التي كانت مطلوبة من الأطباء الأقدمين هي ذات الفضائل التي نتطلّبها ويجب أن نتطلّبها من كل طبيب اليوم وغداً وفي يدهم أرواحنا وحياتنا ؟ واذا كانت أساليب تعليمنا الطب قد تغيّرت اليوم وفاقت ما كانت عليه ، وثقافتنا الطبية قد اتسعت آفاقها وارتقت مقاييسها العلمية فهل من الضروري أن تتغيّر أخلاقنا الطبية وخصالنا المهنية ، وواجباتنا الأدبية ؟

قبل الإجابة على هذا السؤال المهم سلباً أو ايجاباً ، وقبل بيان ماهية ثقافة أطبائنا العرب ، يتحتم علينا - ولو بصورة وجيزة - استعراض نشأة الطب من أقدم الأزمنة حتى أيام العرب الزاهية ، وبيان ما كانت عليه نظرة المجتمع الى الأطباء ومهنتهم ، وما هي مجمل الفضائل التي كانوا يتحلّون بها ؟ .

تذكر كتب التاريخ والحضارة أن الكهنة في مصر وبابل وآشور والهند

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والصين كانوا يمارسون الطب ويعلمونه ويعرفون خواص الأعشاب وكيفية استعمالها ، وكانوا يتوارثون المعرفة والمهنة خلفاً عن سلف ، ويتعلمون معها السحر والتنجيم وعلم الكيمياء ، وعلوم الدين وما يتصل بالعبادات والطقوس والشرائع ، ويتعاطون التطبيب كما يتعاطون خدمة الهياكل والمعابد ، والآلهة والأصنام .

وكان لهؤلاء الكهنة الأطباء وسدنة الهياكل والمعابد صفة القداسة وسلطة القضاء والحكم بين الناس .

وكان الكهنة يعتبرون الطب والطبابة ومعرفة الكيمياء من الأمور السرية المقدسة التي لا يجوز إباحتها لكل طالب ، لأن لها أسرارها وأصالتها ، وأدعيتها ، وتعاويذها ، فلا يعلمونها إلا لمن كان من أولاد الملوك أو الأمراء أو من طبقة الأشراف النبلاء ، ويتحلّون بالصفات المؤهلة التي تمكنهم من أن يكونوا خدمة الآلهة والملوك وخدمة الطبابة تقديساً للعلم والطب والطبابة ورفعاً لدرجاتها واعتبارها .

وفي أيام البابليين كان أهل المرضى يضعون مرضاهم في الشوارع العامة ويعرضونهم على المارة لعلّ واحداً منهم يكون قد أصيب بما أصيب به المريض ثم شفي من دائه فيصف للواقفين ما استعمله من العقاقير والأدوية والأعشاب والتعاويذ والأدعية حتى زال عنه المرض وتخلّص من الروح الشريرة التي كانت سبباً لمرضه ، فيدوّنون ما قاله على ألواح مشويّة من الآجر ويسلمونها الى سدنة الهياكل ليحفظوها ويضيفوها الى غيرها من الألواح التي اكتشف علماء الآثار الكثير منها .

ولعلّ ما حدث في الماضي السحيق يحدث مثله اليوم بين القبائل المتوحشة التي تعيش في حالة بدئية في مجاهل افريقيا وأمريكا الجنوبية ، وفي صحارى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أستراليا ، وفي آسيا وجزر الهند ، فان مرضاهم يلجأون الى الكهنة والسحرة لمداواتهم وطرد الأرواح الشريرة عنهم .

ومما خلّده المصريون والبابليون والهنود من آثار وكتب وروايات نستطيع أن نقول بأن تاريخ الطب قد بدأ في عصور تلك الأمم وأمثالها ومن أتى بعدها .

ويدلنا تاريخ اليونان على أن الطب أيام (اسقولابيوس [1]) انحصر فيه وفي أولاده وعائلته التي انحدر منها (أبيقراط [2]) ، وتدلنا وصية أبيقراط وهي الميثاق الخالد في عالم الطب على وجود النظام الوراثي في تعاطي الطب ومعاطاته .

على أن هذا الانحصار العائلي لم يتبدل إلاّ في زمن (أفلاطون [3]) الذي أنشأ (الأكاديمية) للعلوم والطب والفلسفة والرياضيات في (أثينا) وخصها بتلامذته ومريديه يؤمونها ويحضرون دروسه . وكانت أبواب (الأكاديمية) مفتوحة لأبناء الشعب ولكن لا ينتسب اليها إلاّ من توجد فيه الأهلية والجدارة لتحصيل العلم من أبناء اليونان .

وجاء في المصادر المصرية بأن سكان مصر هم أقدم من تعاطى صناعة الطب لاعتقاد ملوكهم وكهنتهم وعلمائهم أن الروح عائدة الى الجسم بعد مفارقتها له اذا بقيت الأجسام سليمة من الفناء .

ويدافع هذه العقيدة اشتغلوا بأمر التحنيط واكتشفوا ما يلزم له من مواد كالزيوت العطرية ، والراتينجية ، والدهنية ، والمعدنية ، وكانوا يستعملون معها

(١) أسكولابيوس Ascolepius إلـه أسطوري عند اليونان ويقال انه ابن « أبولو » أبو الآلهة . وكانت أمه حورية اسمها كورونيس ، ووصفه هومر بأنه طبيب ماهر وكان يمثل في المعابد ويعبد ، وله ابنة هي إلـهة الصحة اسمها هياجين وولد هو إلـه الشفاء .

(٢) أبقراط Hippocrates .

(٣) أفلاطون Platone عاش في سني ٤٣٠ - ٣٤٧ ق. م

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الكافور وزيت الصندل ، والمر ، وحصى اللبان ، ومركبات الزيبق ، ومركبات الذهب ، والأنثيمون ، والأرسنيك الطبيعي ، وأملاح الكلور والصوديوم والبوتاس ، والرصاص ، والبوركس والنطرون وغيرها من المواد العضوية وغير العضوية لاحكام عملياتهم الكيميائية الدقيقة المعقدة .

وأشهر من عرف من أطبائهم (هرمس الأول [1]) الذي ألف اثنين وأربعين كتاباً مقدساً كان منها ستة في الطب وتركيب البدن وأعضائه ، ولا سيما في العينين وفي الجراحة والآلات الجراحية المستخدمة لتوليد النساء ، ومعالجة أمراضهن . وكان يعتقد أن المعرّفات والمقيّئات والحقن من مقصيات المرض وموجبات الشفاء .

ثم جاء من بعده وسار على منواله الهرامسة الثلاثة الذين أورد ذكرهم صاحب طبقات الأطباء وكان أقدم كتاب طبي عرف عند المصريين « رسالة في التشريح » ورسائل طبية عديدة تأليف (أثوثيس بن منيا) من ملوك الدولة الأولى المصرية .

وتدلنا شريعة حمورابي المؤرخة في حدود عام (٢٠٨٤ — ٢٠٨٠) قبل الميلاد على أن البابليين كان لهم أطباء وجراحون ، وكحالون ، وبياطرة ، وكانت أجرة الطبيب والجراح والبيطري معينة ومنصوصاً عليها في مواد الشريعة ، وكذلك ورد فيها عقاب من يسيء عمله عمداً أو جهلاً .

وفي القرن السابع من الميلاد اكتشفت فيما بين النهرين (دجلة والفرات) احدى المدارس التي كان يدرس فيها الطب .

---

(١) هرمس Hermès هو الاسم اليوناني للاله (طوت أوتوت) المصري ويدل الاسم أيضاً لرجل من حكماء مصر تنسب اليه بعض الكتب الطبية . والهرامسة عدة أشخاص اشتهروا كلهم بالطب والعرب تسمي (هرمس الأول) ادريس وهو من بابل .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والبابليون أول من بنى أساسات المعالجة على الأمزجة الأربعة [١] والأخلاط الأربعة [٢] وأول من مارس الاختصاص في مهنة الطب . وكانوا كالمصريين يستعينون بالأدوية والتعاويذ والرقى والسحر لشفاء الأمراض وطرد الأوبئة واخراج الأرواح الخبيثة من المصابين بالصرع أو الجنون . وكان التنجيم عندهم من جملة الوسائل لشرب الدواء وقطف الزهور وجمع الأعشاب وتعيين وقت العمل ووقت التناول ، ووقت الفصد والحجامة .

ولما ازدهرت حضارة اليونان كان « أبيقراط » المولود عام ٤٦٠ قبل الميلاد أول من ألف كتب الطب وأول من فصله عن الدين ، وأول من جعل مصدر الأمراض الغذاء والهواء . وكان طبيباً ماهراً وله مدرسة يدرس فيها الطب ، وعيادة خاصة يداوي فيها مرضاه . وقد عرف عنه أنه كان يعتمد في معالجة المرض ومداواته على المشاهدة والتجربة . ومن تعاليمه : (أن الأمزجة [٣] أربعة ، والعناصر [٤] أربعة ، وخواص الأشياء [٥] أربعة) ، وكان يعتني بالصحة والتشخيص ، ويتعاطى التشريح والجراحة ، وامتاز في عملياته .

وذكر التاريخ أن « أبيقراط » سكن مدينة حمص ، وذهب منها الى دمشق ، وأقام فيها في بستان غربي الصالحية في محل يسمى (قبة البسار [٦]) . وهو واضع

---

(١) الأمزجة الأربعة : المزاج الصفراوي ، والمزاج الدموي ، المزاج البلغمي ، والمزاج السوداوي .
(٢) الأخلاط الأربعة : الدم ، والبلغم ، والمرة الصفراء ، والمرة السوداء .
(٣) الأمزجة الأربعة : الدموي ، والبلغمي ، والصفراوي ، والسوداوي .
(٤) العناصر الأربعة : هي النار ، والهواء ، والماء ، والتراب .
(٥) خواص الأشياء الأربعة : حار ، وبارد ، ورطب ، ويابس .
(٦) قبة البسار (ولعلها البيّار) : محل بالقرب من (دير مرّان) ذكره القفطي في أخبار الحكماء وفي معجم البلدان (٤ – ١٧٢) هو الدير الكائن بالقرب من دمشق على تل مشرف على مزارع الزعفران ورياض حسنة وبناؤه بالجص وأكثر فرشه بالبلاط الملوّن وهو دير كبير وفيه رهبان ومدحه الصنوبري . ويوجد دير آخر بهذا الاسم واقع على جبل يشرف على (كفرطاب) قرب المعرة ، ويقال ان فيه قبر عمر بن عبد العزيز .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الميثاق الطبي الشهير الذي طلب من تلامذته أن يقسموا عليه ويعملوا بموجبه ، وقد بقي منذ ذلك العهد حتى زمننا الحاضر عهداً يقسم عليه الأطباء في كلياتهم وجامعاتهم أمام أساتذتهم قبل أن يتخرجوا ويمارسوا مهنتهم .

ما هو هذا القسم ؟

جاء في كتاب (طبقات الأطباء) للطبيب ابن أبي أصيبعة أن محتويات القسم هي ما يأتي :

« اني أقسم بالله رب الحياة والموت وواهب الصحة وخالق الشفاء ، وكل علاج ، وأقسم بأسقليبوس ، وأقسم بأولياء الله من الرجال والنساء جميعاً وأشهدهم جميعاً ، على اني أفي بهذا العهد وهذا الشرط ، وأرى أن المعلم لي هذه الصناعة بمنزلة أبي وأواسيه في معاشي واذا احتاج الى مال واسيته وواصلته من مالي الخاص ، وأما الجنس المتناسل منه فأرى أنه مساو لاخوتي ، وأعلمهم هذه الصناعة ان احتاجوا الى تعلمها بغير أجرة ولا شرط ، وأشرك أولادي وأولاد المعلم لي والتلاميذ الذين كتب عليهم الشرط وحلفوا بالناموس الطبي في الوصايا والعلوم وسائر ما في الصنعة ، وأما غير هؤلاء فلا أفعل به ذلك ، وأقصد في جميع التدبير بقدر طاقتي منفعة المرضى ، وأما الأشياء التي تضرّ بهم وتدني بالجور عليهم فأمنع منها بحسب رأيي ، ولا أعطي اذا طلب مني دواء قتالا ولا أشير أيضاً بمثل هذه المشورة ، وكذلك أيضاً لا أرى أن أدني من النسوة فرزجة [1] تسقط الجنين وأحفظ في نفسي في تدبيري وصناعتي على الذكاء والطهارة ، ولا أشق أيضاً عمّن في مثانته حجارة ولكن أترك ذلك الى من كانت حرفته هذا العمل .

---

(١) الفرزجة : هي التحميلة التي تحملها المرأة لاسقاط الجنين وفي الغالب تكون من عقار يهيج الرحم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

« وكل المنازل التي أدخلها انما أدخل اليها لمنفعة المرضى ، وأنا بحال خارجة عن كل جور وظلم وفساد ارادي مقصود اليه في سائر الأشياء ، وفي الجماع للنساء والرجال الأحرار منهم والعبيد . وأما الأشياء التي أعاينها في أوقات علاج المرضى أو أسمعها في غير أوقات علاجهم في تصرف الناس من الأشياء التي لا ينطق بها خارجا فأمسك عنها وأرى أن مثالها لا ينطق به » .

ويظهر أن أبقراط لم يكتف بهذا القسم بل توكيداً له وضع ناموساً لتعاطي الطب ، ووضع وصايا لمن يريد أن يكون طبيباً وأبده العرب في قسمه وناموسه ووصاياه واتبعوها قولاً وعملاً .

أما الناموس [1] فقد قال فيه : « ان الطب أشرف الصنائع كلها ، إلاّ أن نقص فهم من ينتحلها صار سبباً لسلب الناس اياها لأنه لا يوجد لها في جميع المدن عيب غير جهل من يدعيها ممن ليس بأهل للتسمي بها . اذا كانوا يشبهون الأشباح التي يحضرها أصحاب الحكاية ليلهوا الناس بها ، فكما أنها صور لا حقيقة لها ، كذلك هؤلاء الأطباء بالاسم كثيرون وبالفعل قليل جداً . وينبغي لمن أراد تعلم صناعة الطب أن يكون ذا طبيعة جيدة مؤاتية وحرص شديد ورغبة تامة ، وأفضل ذلك كله الطبيعة لأنها اذا كانت مؤاتية فينبغي أن يقبل على التعليم ولا يضجر لينطبع في فكره ويثمر ثماراً حسنة مثل ما يرى في نبات الأرض . أما الطبيعة فمثل التربة وأما منفعة التعليم فمثل الزرع ، وأما تربية التعليم فمثل وقوع البذر في الأرض الجيدة ، فمتى قدمت العناية في صناعة الطب بما ذكرنا ثم صاروا الى المدن لم يكونوا أطباء بالاسم بل بالفعل . والعلم بالطب كنز جيد وذخيرة فاخرة لمن علمه مملوء مروراً ، مسراً وجهرا ، والجهل به لمن انتحله صناعة سوء وذخيرة ردية عديم السرور ، ودائم الجزع ، والتهور ، والجزع دليل على الضعف ، والتهور دليل على قلة الخبرة بالصناعة » .

(١) نقلا عن ابن أبي أصيبعة : ١ - ٢٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وفي الوصية قال : « ينبغي أن يكون المتعلم للطب في جنسه حراً ، وفي طبعه جيداً ، حديث السن ، معتدل القامة ، متناسب الأعضاء ، جيد الفهم ، حسن الحديث ، صحيح الرأي عند المشورة ، عفيفاً ، شجاعاً ، غير محب للمال ، مالكاً لنفسه عند الغضب ، ولا يكون تاركاً له في الغاية ، ولا يكون بليداً ، وينبغي أن يكون مشاركاً للعليل ، مشفقاً عليه ، حافظاً للأسرار ، لأن كثيراً من المرضى يوقفونا على أمراض بهم لا يحبون أن يقف عليها غيرهم ، وينبغي أن يكون محتملاً للشتيمة لأن قوماً من المبرسمين [1] وأصحاب الوسواس — السيداوي) يقابلوننا بذلك . وينبغي أن نحتملهم عليه ونفهم أنه ليس منهم ، وان السبب فيه المرض الخارج عن الطبيعة ، وينبغي أن تكون ثيابه نقية ومعشره سليماً » .

وتأييداً لما تقدم أذكر اعتقاد أطباء العرب فيمن يريد أن يكون طبيباً .

قال الطبيب مهذب الدين أبو الحسن علي بن أحمد بن علي بن هبل البغدادي المتوفى عام (٦٢٠) هجري في كتابه « المختارات الطبية » [2] :

---

(١) المُبَرْسَم : مشتق من البرسام — وهو التهاب في الحاجز الواقع بين الكبد والأمعاء ، والمبرسم من يصاب بهذا الداء . وأصل الكلمة دخيل على العربية وهي مركبة من « بر » ومعناه الصدر بالفارسية و « سام » ومعناه (الموت) .

(٢) وما جاء في وصايا البغدادي يتفق مع ما جاء في وصايا عميد أطباء القاهرة (ابن رضوان) الذي اشترط على الطبيب أن يكون متحلياً بسبع خصال ، هي : « ١ — أن يكون تام الخلق صحيح الأعضاء ، حسن الذكاء ، جيد الروية ، عاقلاً ، ذكوراً ، خير الطبع . ٢ — أن يكون كتوماً لأسرار المرضى لا يبوح بشيء من أمراضهم . ٣ — أن يكون حسن الملبس ، طيب الرائحة نظيف البدن والثوب . ٤ — أن تكون رغبته في إبراء المرضى أكثر من رغبته فيما يلتمسه من الأجرة ، ورغبته في علاج الفقراء أكثر من رغبته في علاج الأغنياء . ٥ — أن يكون حريصاً على التعليم والمبالغة في منافع الناس . ٦ — أن يكون سليم القلب ، عفيف النظر ، صادق اللهجة ، لا يخطر بباله شيء من أمور النساء والأموال التي شاهدها في منازل الأعلاء فضلاً عن أن يتعرض لها أو الى شيء منها . ٧ — أن يكون مأموناً ثقة على الأرواح والأموال ولا يصف دواء قتالاً ولا يعمله . ولا دواء يسقط الأجنة . يعالج عدوه بنية صادقة كما يعالج حبيبه . » ابن أبي أصيبعة — جزء ٢ ص ١٠٢ — ١٠٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« ان لكل واحد من الناس حداً من الاستعداد في قبول العلوم والصنائع بحسبه يكون مطبوعاً فيها ، فاذا توفر على ما هو مستعد له ومطبوع فيه انتفع به ونفع ، وان تعداه الى غيره ضرّ واستضرّ ، والصنائع والعلوم تنمى وتزيد بوقوعها الى المستعدّين المطبوعين فيها ، وتنقص وتفسد بوقوعهـا الى غيرهم . ويعرف المطبوع في الحكمة بصحة مزاجه وتناسب أعضائه وطهارة أخلاقه » .

« مجلد ٢ ص ٦ » .

ويضيف على قوله :

« ومما يمتحن به حتى يوثق بعلمه وعمله أن ينظر فيما اذا أنفق زمانه في الماضي في الاشتغال بهذه الصناعة وملازمة خدمة الكبراء ممن هو أهل لها ، وطول ملازمتهم والقراءة عليهم والعلاج بين أيديهم ، والتدرب في الدخول على المرضى في بيوتهم ، وملازمة خدمة البيمارستانات التي يجتمع فيهـا حذاق الأطباء وكثرة نظره الى معالجة الأستاذ فيشار اليه ويعول عليه . وكذلك هل يثني عليه الناس لحسن سيرته وديانته ، وان همته اذا خلا في بيته مطالعة الكتب ودراسة هذه الصناعة ، وأنه غير مشتغل باللهو واللعب والشرب ومواترة السكر ، ولا ببعض هذه الخلال المذمومة التي تستغرق الزمان بالتضييع ، والخاطر بالتوزيع ، فان كان ينسب الى شيء من ذلك فلا ينبغي أن يوثق اليه ولا يعول عليـه في هذه الصناعة » .

وهو قول اذا نظرنا اليه بعين تلك الزمن وبعين زمننا وبعين التحليل السيكولوجي والصحي والسلكي نجده متوافقاً مع قسم ابيقراط ومع ناموسه الطبي ومع وصاياه ومع ما كانت تتطلبه العصور العربية في معاهدها وبيمارستاناتها من أطبائهـا ، ومع ما نسعى الى تحقيقه والعمل به معاهدنا العلمية الحديثة في تنشئة الأطباء وتهذيب أخلاقهم وتربيتهم الصناعية لأنه قول صادر عن تجربة وعلم ، ونفس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

نذرت نفسها للتعليم والتدريب والتنشئة وخدمة المهنة ، وخدمة الإنسان والإنسانية .

وبعد هذا لنعد الى متابعة بحثنا عن تطوّر الطب ونشأة الأطباء ، فأقول : ومن بعد أفلاطون ظهر أريسطو الذي ولد في عام ٣٨٤ قبل الميلاد ومات في عام ٣٢٢ وكان من أعظم فلاسفة اليونان وهو وان لم يكن طبيباً ولكن تعاليمه أثرت تأثيراً عميقاً في تقدم الطب وفي ذهنية العرب فدعوه المعلم الأول .

ويذكر متتبعو حياته وآثاره أنه ألّف في مواضيع عديدة تتعلق بالطب كعلم الأحياء ، وعلم التشريح المقارن ، وعلم الفيسيولوجيا ، وعلم الأجنة ، وعلم الحيوان ، وعلم النباتات ، علاوة على ما ألّفه في الفلسفه والمنطق والبيان والسياسة وعلم النفس وعلم الأخلاق .

وكان أستاذاً ومربياً لاسكندر الكبير في صغره ولما تولى اسكندر زمام الحكم ، وقاد جيشه للفتوحات اتخذ معلمه مشاوراً له في اجراءاته وأموره السياسية .

وقد اشتهر أريسطو بالولع العلمي والتحري الواسع والدقة العلمية والنهج الرتيب .

وفي أيامه أنشأ الاسكندر مدينة الاسكندرية عام ٣٣١ قبل الميلاد وأنشأ معها مدرسة الاسكندرية التي ارتقت ارتقاءً عظيما في عهد البطالسة وبقيت مناراً للعلم ونشره ومعهداً لتخريج العلماء والفلاسفة والأطباء والحقوقيين حتى الفتح الإسلامي عام ٦٤٢ ميلادية . ومن هذه المدرسة تخرج الأطباء (هيروفيلس ، وارسطرارطس) واشتهروا بترقية علمي التشريح والفيسيولوجيا ، وتخرّج منها (جالينوس [1]) أعظم طبيب ترجم له العرب وأخذوا عنه أيام الأمويين لأنه كان خاتمة الأطباء الكبار الثمانية الذين اشتهروا في هذه المدرسة .

وفي طبقات الأطباء يقول الطبيب ابن أبي أصيبعة : « ان جالينوس لما ظهر وجد صناعة الطب قد كثرت فيها أقوال الأطباء السوفسطائيين ، واغمت

(١) جالينوس Galinus ولد عام ١٣١ وتوفي عام ٢٠١ . له اكتشافات خطيرة في التشريح ، ائتمّ به أئمة أطباء العرب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

محاسنها ، فانتدب لذلك وأبطل آراء أولئك وشيد أقوال (أبيقراط) وآراءه وآراء التابعين له ، وصنف في ذلك كتباً كثيرة كشف فيها عن مكنون هذه الصناعة ، وأفصح عن حقائقها ونصر القول الحق فيها ، ولم يجيء بعده من الأطباء إلاّ من هو دون منزلته ومتعلم منه » .

وكانت مدة حياة جالينوس على رأي الطبيب النحوي سبعة وثمانين سنة ، منها صبي ومتعلم (١٧) سنة ، وعالم ومتعلم (٧٠) سنة . ولكن جالينوس يقول عن نفسه في كتابه (مراتب قراءة كتبه) : « ان أبي لم يزل يؤدبني بما كان يحسنه من علم الهندسة والحساب والرياضيات التي تؤدب بها الأحداث حتى انتهيت من السن الى خمس عشرة سنة ، ثم انه أسلمني في تعليم المنطق وقصدَ بي حينئذ في تعليم الفلسفة وحدها ، ثم رأى رؤيا دعته الى تعليمي الطب فأسلمني في تعليمه وقد أتت عليّ سبع عشرة سنة ، وبعدها تعلمت الطب وتعاطيته حتى بلغت الثاني وثلاثين سنة .

وكان جالينوس عبقرياً واسع المعلومات ، ذرب اللسان ، كتب الكثير في مختلف المواضيع الطبية المعروفة في زمانه انما كان ينقصها سلاسة أبيقراط ووضوحه .

وكان في حياته ومعيشته يحب الفخفخة ، وطالما ساقه عقله المولّد الى الدخول في عالم الخيال والفلسفة ، ولذلك أتى ببعض الآراء الوهمية غير المعقولة ، وأتت مؤلفاته صعبة الدرس والفهم ، ومع هذا فقد كانت بين المؤلفات الأولى التي نقلت الى العربية ، ترجمها حنين بن اسحق وولده اسحق وابن اخته حبيش الأعسم .

وكانت مدرسة الاسكندرية جمعت تآليف جالينوس كلها وبوّبتها ووضعتها في ١٦ مجلداً ليسهل درسها ، وذكر ابن أبي أصيبعة أن هذه المجموعة من الكتب المترجمة الى العربية كانت المتداولة بين الناس وفي أيديهم والمعتمد عليها في دراسة الطب (ككتاب الفرق الطبية ، وكتاب الصناعات الصغيرة ، وكتاب النبط الصغير ، وكتاب « غلوقن » الذي معناه الأزرق كتبه في التأني لشفاء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الأمراض ، وكتاب في الفطام ، وكتاب في العضل وتشريح العصب ، وتشريح العروق غير الضوارب ، وتشريح العروق الضوارب ، وكتاب الأسطقسات [١] وهو يبين جميع الأجسام التي تقبل السكون والفساد وهي أبدان الحيوان والنبات ، والأجسام التي تتولد في بطن الأرض ، وكتاب المزاج ، وكتاب القوى الطبيعية ، وكتاب العلل والأمراض ، وكتاب تعريف عمل الأعضاء الباطنة « باثالوجيا » ، وكتاب النبض الكبير ، وكتاب أصناف الحميات ، وكتاب البحران ، وكتاب حيلة البرء ، وكتاب علاج التشريح الكبير ، وكتاب فيسيولوجيا الأعضاء ، وكتاب في قوى الأدوية المسهلة ، وكتاب في العادات ، وكتاب في الأدوية المفردة ، وله كتب أخرى في أمور طبية ومسائل تتعلق بالتداوي نظر فيها وفسرها من جاء بعده من الأطباء الاسكندرانيين كاصطفان ، وانقيلاوس ، وجاسيوس ، ومارينوس ، وثادووسيوس ، وديسقوريدس ، ويحيى النحوي الذي عاش ولحق زمن عمرو بن العاص في مصر وله كتب عديدة ترجمت الى العربية أيضاً مع كتب ديسقوريدس صاحب الفضل في تعليم وتصنيف مفردات الطب) .

وبعد ما انشقت الامبراطورية الرومانية [٢] الى مملكتين واضطهد رؤساء النساطرة السريان الذين كانوا في مدارس أثينا هاجر النسطوريون الى الشرق وكانوا من العلماء والفلاسفة والأطباء وحملوا معهم العلوم اليونانية وثقافتها وسكنوا بلاد الرها وما جاورها وأقاموا فيها مدارسهم .

---

(١) الاسطقسات : معناها العناصر . وهي عند الأقدمين . (الماء والأرض والهواء والنار) وأصلها مأخوذ من اليونانيه .

(٢) لم يكن العصر الروماني البيزنطي الممتد من عام ٤٧٦ الى ٧٣٢ بعد الميلاد من العصور التي لها أثر كبير على العرب ، بل كانت المدنية اليونانيـــة خلالها في انحطاط وانحصرت تعاليم أبيقراط ، وسوقراط ، وجالينوس في الأديرة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومنهم من سكن في نصيبين ، وقنسرين ، وميافارقين ، وأسسوا فيها مدارس علمية وطبية أخرى بلغت خمسين مدرسة ، ومنهم من هاجروا الى جنديسابور من بلاد العجم وأوجدوا أيضاً مدرستهم الشهيرة التي تخرج منها الطبيب العربي الشهير الحارث بن كلدة أول طبيب في الجاهلية قابل كسرى أنوشروان مع وفد من رؤساء العرب وتحدث اليه ووصف له فضائل العرب ومكارمهم وأجابه على عدة أسئلة سأله عنها ليمتحن معرفته .

وكان النساطرة ترجموا العلوم اليونانية الى السريانية ، ولما فتح العرب بلاد سورية والعراق وايران ، وفتحوا قلوبهم للعلم وبذلوا الأموال للحصول عليه وصرفوا حياتهم للحصول على كتبه وترجمتها وسافروا لأجل ذلك الى بلاد اليونان وايران والهند والصين وعملوا على ترجمتها ، واستقدموا العلماء والتراجمة لهذه الغاية وللتعليم والتدريس والتطبيب ، كان هؤلاء النساطرة وغيرهم من خير ما ساعد على ذلك .

والذي نستطيع استنتاجه من كل ما تقدم أن أطباء العرب بدأوا تعلم الطب من الذين كانوا في مدرسة الاسكندرية ابان فتح مصر ، ثم من أطباء النساطرة الذين كانوا يدرسون في مدارس الرها وغيرها مما ذكرنا أسماءها .

(يتبع) عبد الرحمن الكيالي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net